

١٣

ومثل القراءات تفسير الذكر الحكيم، ففيه تراث مأثور عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عن صحابته وخاصة أبي بن كعب وعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عباس، وحمله التابعون عنهم إلى آفاق الأرض: العراق وخراسان والشام واليمن ومصر، مع بعض إضافات لهم. وأخذت مادة هذا التفسير المأثور تتضخم من جيل إلى جيل حتى سجلها الطبري في تفسيره الضخم لأواخر القرن الثالث الهجري، وتظل مادة هذا التفسير بأعين كل من حاولوا تفسير الذكر الحكيم بعد الطبري من غزنة في أفغانستان إلى قرطبة في الأندلس.

وهذا نفسه يلاحظ في الأمهات من كتب الحديث النبوي وشروحها، وتعرض لكتاب واحد من تلك الأمهات هو صحيح البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ فقد شرحه مراراً علماء يمتدون من بست وهرارة في أفغانستان إلى قرطبة في الأندلس، مثل أحمد بن محمد الخطابي البستي الأفغانى وابن بطلال القرطبي والنووى الدمشقى والعينى الحلبي، وشرحه المصريون مراراً كثيرة من أمثال ابن الملغن والبلقيني والدمايني ومن شروحهم المطبوعة فتح البارى في شرح صحيح البخارى لابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ وإرشاد السارى في شرح صحيح البخارى للقسطلانى المتوفى سنة ٩٢٣ واستمر الصحيح يشرح في الحقب المتأخرة مثل شرح القارى الهروى المتوفى سنة ١٠١٤ وحاشية عبد القادر الفاسى المتوفى سنة ١٠٩١ وشرح على زاده حلمى المتوفى سنة ١١٦٧. وكل شارح من هؤلاء الشراح كان يرجع إلى الشراح قبله. ولهذا كله دلالتان: دلالة على أن صحيح البخارى بمجرد أن ألفه صاحبه أصبح تراثاً عاماً مشتركاً للعالم العربى جميعه، ودلالة ثانية هي أن شروحه تحولت بدورها تراثاً عاماً للأمة، فما يؤلفه منها شارح في أقصى الشرق مثل بست وهرارة يعكف على قراءته العلماء في أقصى الغرب في فاس وقرطبة، ولو أننا عنينا بأن نجمع كل ما كتب من شروح وأعمال حول صحيح البخارى لشغل ذلك منا عشرات الصفحات. ولعل من الطريف أن نعرف أنه استحال في مصر أثناء العصور الوسطى إلى ما يشبه تراثاً شعبياً، إذ كان يقرأ في المساجد، ويتجمع أهل القاهرة لسماعه وخاصة في شهر رمضان،